# المحاضرة الرابعة

# كيف يدرس الباحث اللغوي الانثربولوجي اللغة

**كيف يدرس الباحث الانثربولوجى اللغة؟**

إن أهم خصيصة من خصائص البحث الانثربولوجى هى دراسة الثقافة في الميدان، فالدراسة الميدانية هى عماد الدراسات الانثربولوجية، والباحث الانثربولوجى حينما يبدأ في دراسة لغة ما فإنه يبدأ في اتباع الأسلوب الميدانى في دراسة تلك اللغة، حيث أن اللغة ما هى إلا جزء من ثقافة أى مجتمع إنسانى.

والباحث اللغوى الانثربولوجى ينبغى في دراسته أن يبتعد عن البحث في البناء الشكلى للغة في المستويات الصوتية والنحوية من غير أن ينظر إلى ثقافة الناطقين بها، فإذا رغب أن يكون وصفه متضمنا المستوى الدلالى فعليه أن يستعين ببعض المعلومات الثقافية عن الجماعة التى يدرس

(١) على محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر العربى، مرجع مذكور، ص ١٢٠.

لغتها، وعلى الأخص إذا أراد أن تكون تفسيراته لمعنى الكلمات أكثر وضوحا، ولا يحصر نفسه في وضع قائمة للألفاظ التى تنقل ترجمة قريبة لمعنى الكلمة[1].

إن ضرورة نزول الباحث إلى الميدان قد تأتى أيضا بسبب فقدان المواد المكتوبة عن بعض اللغات المختلفة، وخاصة اللغات البدائية، لذلك يجب أن يحصل على مادته من الرواة اللغويين مباشرة، ويتم ذلك من خلال زيارتهم في مواطنهم الخاصة، حيث أن المادة الأولية للغة هى التعابير المنطوقة، فإن الراوى اللغوى أو الراوية اللغوية Informant شخص مألوف وضرورى لدراسة أى لغة حية .. والراوى اللغوى لا يعتبر مدرسا ولا لغويا، وإنما هو ببساطة متكلم وطنى للغة يمكنه مساعدة المسجل اللغوى في عمله، والباحث هنا تظهر براعته في مدى نجاحه في مباشرة الرواة وكسب ثقتهم حتى يستطيع أن يتكلم الراوى بصورة طبيعية حسب قدرته واقتناعه وثقته في الباحث الذى أمامه، ويبدأ اللغوى في أخذ صيغ كلمات مفردة على أنها مواد معجمية، وكلمات أخرى بغرض وصفها الصوتى وعمل قوائم وتصريفات لأشكالها اللغوية.

ونجد الراوى في هذه الحالة أيضا يسرد الأقاصيص، الحكايات الشخصية، ومجموعة من نشاطاته الخاصة .. الخ ويكون الراوى عند سرده لكل هذا واقعا في مجال خلفيته عن لغته الخاصة وعلى سجيته، فيستطيع الباحث جمع مادته دون أن يكون هناك أى تأثير خارجى يؤثر على دقة المادة وصحتها، وبعد ذلك يتجه إلى معمله ليحلل مادته تحليلا علميا من الناحية الصوتية والنحوية، ولا شك أن نجاحه في جمع مادته من الراوى

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٤.

ومن داخل البيئة يعتبر جزءا هاما لكل فحص خاص باللغات الحية، وبالنسبة للعمل في لغات لها نظام كتابة وأدب مسجل وعراقة دراسية ينبغي أن يلحق بعمله في كل مجال مادة محققة من هذه المنابع ومن عمل الدارسين السابقين[1]. وعلينا أن نذكر هنا أن التعامل مع راو يؤدى عمله وسط جماعته وقومه أفضل بكثير من العمل مع راو منعزل في بيته، حيث يوجد اختلافات شخصية كثيرة في اللغة وفى أى لهجة من لهجاتها، ومن الممكن أن يسير وصف لغوى بعد التفكير أو بالضرورة على متكلم ينفرد يقوم مقام راو، لكن إذا كان هناك فرصة لوجود أكثر من راو واحد، فإننا نستطيع أن نوازن بين خصائص أحد المتكلمين وبين غيره من المستويات اللغوية المختلفة، ويمكن أيضا أن تبرز ظواهر معينة كأبنية وأنماط تنغيمية وأختلافات أسلوبية عند المحادثة وفى استعمال اللغة في أوضاعها العادية، ومن الممكن أن تخفى هذه الظواهر على الجماعة التى ينتمى إليها الراوى، فتحليل وظائف دلالية أو معانى كلمات مما يدخل في ثقافة المتكلمين يجب تيسيرها بمساعدة شخص من البيئة الفعلية حتى يمكن استخلاص قرينة السياق منها[2].

ومن هنا جاءت نظرية "سياق الحال Context of Situation" وهى من أهم النظريات في البحث اللغوى، لأنها تمثل الآن ركنا هاما من أركان الدرس اللغوى.

فهذه النظرية لولا تنتسب إلى مدرسة لندن اللغوية وبخاصة إلى الأستاذ فيرث، وهى تمثل أساس نظريته في المعنى، ولكنها فقدت أهميتها

(١) المرجع السابق، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢٥.

بعد وفاته سنة ١٩٦٠، وما لبث أن عادت دراسته "المعنى" إلى صلب البحث اللغوى عند العالم تشومسكى وأصحابه بعد ذلك[١].

ثم جاء بعد ذلك العالم الانثربولوجى "برونسلاف ما لينوفسكى Malinowski" وقام بإرساء قواعد هذه النظرية، فقد توصل إلى فكرة "سياق الحال" من خلال أبحاثه الحقلية التى قام بها في جزر التروبرياند عام ١٩١٤، قدم من خلال دراسته هذه شرحا وافيا لمشكلة المعنى في اللغات البدائية[٢].

وكان مالينوفسكى قد قام بدراسة حقلية على بعض القبائل الميلانيزية، جمع من خلالها عددا كبيرا من النصوص تشمل سيفا سحرية وفنونا شعبية، وغير ذلك من فنون الكلام ثم حاول أن يترجم هذه النصوص إلى اللغة الانجليزية وأن يكتب إلى ذلك – نحوا لهذه اللغة ومعجما لها، ولكنه واجه صعوبات عديدة ووجد أن الترجمة للكلمة لا تصلح لشئ؛ فالمهم أن يفهم الفكرة من وراء تلك الكلمة التي يترجمها، فقد وجد أن كثير من الكلمات تشير إلى النظام الاجتماعى الوطنى، وإلى التعبيرات التى تعبر عن معتقدات هذه القبائل، وعن عاداتها واحتفالاتها، وكل ذلك ليس موجودا في الانجليزية ولا في أية لغة أوربية أخرى، وترجمة هذه الكلمات والتعبيرات لا يقتضى تقديم نظائرها المتخيلة لأن نظائرها الحقيقية غير موجودة، وإنما

(1) Firth, J. R., Selected Papers, Edited by Palmer Longmans, 1968, P. 139.

(٢) انظر:
Malinowski, "The Problem of Meaning in Primitive Language" Supplement I in Ogden and Richards". The Meaning of Meaning, London 10 Edition, 1949. pp. 296 – 336.

يقتضى شرح معانيها عن طريق وصف دقيق للثقافة والتقاليد لمجتمعات هذه القبائل[1].

ومن هنا ظهرت أهمية فهم الدارس للغوى لثقافة المجتمع الذى يدرس لغته، حتى تكون لديه خلفية واسعة لما يجمعه من كلمات ومصطلحات تحمل معانى ضمنية كثيرة، وتعبر عن فكرة وتلعب دورا أساسيا في حياة من يتكلم بها.

ويقول مالينوفسكى أنه على الرغم من بساطة الجمل في اللغات البدائية التى درستها، إلا أن هذه البساطة تخفى قدرا كبيرا من التعبير لا يمكن الوصول إليه إلا بالموقف أو السياق، ولن نعرف كيف توضع الكلمة، وموضعها من ثقافة المجتمع، ويؤكد مالينوفسكى على أنك إذا ذهبت إلى هذه القبائل ومعك شارح ممتاز يشرح لك كل كلمة تسمعها، فإنك لن تفهم ما يدور أمامك من حديث[2].

**وقد انتهى مالينوفسكى إلى عدة نتائج أهمها:**

إن اللغة هى نمط من النشاط وجزء من السلوك فضلا عن أنها لم تعد عملية توصيل صوتى فقط للأفكار، وهذا جانب من جوانبها، ولا يصلح هذا التعريف إلا في قاعات الدرس ومناظرات المثقفين.

كذلك فإن النطوق اللغوية لا تنطق، ولا تفهم في حد ذاتها ولكنها تفهم في "سياق الحال" هذا السياق الذى يضم كل ما هو شخصى وثقافى وتاريخى، بل يفرض معرفة الوضع الفيزيقى الذى تم فيه الكلام بين متكلمين وسامعين.

---

(١) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع متكور، ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٥.

وأخيراً أوضح أن الألفاظ ليست اختلافات عالمية، فلكل لفظة ما يقابلها في لغة أخرى، ولكن المهم هو أن ندرك أن "اللفظة" تعتمد على "ثقافة" المجتمع والترجمة ممكنة فقط عند فهم السياق الثقافي[1].

هذه هي الخطوط العامة لفكرة "سياق الحال" كما أوضحها مالينوفسكي، والذي أكد من خلالها على أنها أصبح سبيل إلى الدرس اللغوي وإلى بحث حياة اللغات .. فهي التي تكشف لنا عن طبيعة اللغة من خلال إطارها الثقافي.

والباحث اللغوي في الميدان عليه أن يعتني أيضاً بظواهر اللغة المختلفة، وأن يدرك أن النصوص الشفهية لها أهميتها الكبرى في تحليل ووصف لغات منطوقة، فهي تساعدنا على فهم نواحي الثقافة وتقاليد المتكلمين، وهذه النصوص تكون عبارة عن قصص قديمة، وأغان وقصص خرافية وأساطير وطقوس وسير شخصية .. الخ، وهذه النصوص تعتبر نماذج من المادة التي يستطيع اللغوي بمفرده أن يجمعها ويحللها، فهذه القصص توضح خصائص جمالية للجماعة التي تعبر بها، وتحفظ من جيل إلى جيل في عقول الناس، وهؤلاء يكونون إما ناس عاديين أو ممتازين ثقافياً، وفي كلتا الحالتين فهم أكفاء بارزون في صون ونقل وخلق هذه الاستعمالات في اللغة[2].

وإذا كان هناك مجموعة نشاطات يجب الحصول عليها مع وجود لغتين، لغة الراوي ولغة اللغوي، يجب أن يتم ذلك عن طريق المترجمين وذلك يتطلب درجة عالية من الثقافة اللغوية الرفيعة ومعلومات عميقة عن اللغتين من أجل استخلاص العناصر الثقافية الأساسية التي يمكن تدوينها،

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٦.
(٢) علي محمود مزيد، علم اللغة في الفكر العربي، مرجع مذكور، ص ١٢٦.

وقد قام عدد من علماء اللغة بأعمال استعانوا فيها بالمترجمين ولكن ظهر في بعض أعمالهم تحريفا ونقصا في بعض الجوانب، ولكننا نستطيع القول بأن علم اللغة الآن يتمتع بالامتياز، فقد أحاط العلم الجديد بآلات التسجيل المضبط الدقيق، وطرق عديدة ذكرناها من قبل في مناهج البحث كلها تساعد البحث على الالمام بكل جوانب المادة التي يجمعها، كما أن هذه الأجهزة تساعد على تسجيل كلام جماعات ستغنى لغاتهم، أو لهجاتهم يوما ما، لذلك يجب علينا التسجيل والمحافظة عليه دائما[1].

بعد هذا العرض لكيفية دراسة الباحث اللغوى الانثربولوجي للغة يمكننا القول أن الدراسة الميدانية هي أيضا عماد الدراسات اللغوية، فلا غنى عن دراسة اللغة في حقلها الأساسي، فمن خلال هذه الدراسة يمكن للباحث أن يقف على طبيعة اللغة التي يدرسها، وعلى أوجه اختلافها وتشابهها مع اللغات الأخرى، كما أنه يمكنه معرفة ما تربطها من صلات مع اللغات المختلفة، ويمكنه أن يتفهم الدور الذى تلعبه اللغة في حياة من يتكلم بها، وما هي وظيفتها الأساسية في المجتمع، كما أننا نعتبر الدراسة الميدانية هي المفتاح الأساسى الذى يفتح لنا باب الاطلاع والكشف عن ثقافة المجتمع الذى نقوم بدراسة لغته، وعلى العلاقة والتأثيرات المتبادلة بينهما، وهذا هو موضوع الرسالة والبحث الذى أتقدم به، وهو أهم جانب يعنينى في تناولى لموضوع الثقافة وموضوع اللغة.

نأتي بعد ذلك لموضوع النظر في اللغة، حتى وكيف نشأ؟ هل دراسة اللغة ودورها في المجتمع وعلاقتها بالثقافة مبحث قديم؟ أم أن العلماء تناولوه منذ وقت قصير فقط؟

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٧.